المستقبل - الجمعة ٢٧ آب (اغسطس) ١٩٩٩م - ١٦ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ

على هامش
«الفصول الأربعة» لمعن زيادة

روح اليسار العربي مستحدثاً

د. شبلي ملاّط(*)

دائماً تأتي مؤثرة السيرة المبتورة بيد الدهر، وداعية لتأملات مستفيضة في كل صفحة لما كانت هذه الصفحة عليه لو سمح الزمن الخؤون للمؤلف ان ينهيها.

رويداً يا ابنة الماضي رويداً
على ما فيّ من خُلُق أنوفِ

لكن ابنة الماضي لم تمهل معن زيادة لإنهاء سيرته، التي صدرت مؤخراً عن دار رياض الريّس، فجاءت في فصلها الرابع عشر مقتصرة على صفحات معدودات، وفي بعض الفصول الاخرى مبطنة في تفاصيل ليس هنالك من شك ان الكاتب كان تركها خارج الذكريات المدونة لو امهله المرض العضال الذي منع الجهد الجبار من الاكتمال.

وكأن الكتاب فعلاً «هوز هو»(Who's Who) ليسار عربي وحدوي تألق فيه صاحبه في الستينات والسبعينات، عندما كان يدير نشاطاً ملحوظاً في اميركا الشمالية الى جانب سيادة اقطاب «القوميين العرب» كما يتصل به داخل الوطن في سياق تفرعاته الفلسطينية ــ اللبنانية آنذاك، وبخاصة حول الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين بقيادة نايف حواتمه. كما ان النشاط العربي لم يقتصر على العمل السياسي، بل كان وبقي فكرياً، ومعن زيادة فيلسوف عمل مبدعاً في فكر ابن باجه الاندلسي، كما اشرف فترة طويلة على مجلة «الفكر العربي» والمجموعة الفلسفية العربية المهمة التي اصدرها في ثلاثة اجزاء.

ويتبع القارئ الكاتب في الفصول الاربعة من حياته، منذ نشأته في مدينة طرابلس واهتماماته الثورية فيها، الى رحلته الى القاهرة في الفصل الثاني، وبداية دراسة طويلة اخذته بعدها الى جامعة ماكغيل حيث انهى شهاداته العليا. هذا كان الفصل الثالث، فصل الخريف كما حلا للكاتب ان يصفه، وهو لا يزال في عنفوان شبابه، ففصل رابع برجعته الى بيروت سنة ١٩٧٢. ويتضح عندئذ للقارئ كم كانت مشوقة ذكرياته في خضم الحرب المضنية لو تمّمها، وكم كان اغتنى العالم بتجربة جسورة ومثبطة معاً لثوريين خانتهم الثورة، امثال كمال جنبلاط في سيرته العنفوانية المبتورة ايضاً، و«مذكرات الفتى بالاحمر»، في الكتاب القيّم الذي نشره فواز طرابلسي عن هذه الفترة العصيبة من تاريخ بلادنا.

وقد يكون اكثر ما لفت نظري في ذكريات معن زيادة، الوحدوي العربي الصادق، تجاهل متصل لظاهرة جمال عبد الناصر في العالم العربي، وان عاش ملء فترة نفوذه في القاهرة، وقد لا يتعدى ذكره له في الكتاب اشارة عابرة في محلين اوثلاثة.

وليس واضحاً هل كان مثل هذا التغاضي عن الناصرية عبارة للذاكرة الانتقائية التي يتميز بها اولو اليسار المهزوم في عصرنا الحاضر، وهي التي جعلتهم كلهم تقريباً شغوفين بحرية كلامية لا شائب عليها ولا غبار، وقد منعتها الناصرية من الايناع..

ولعله من المفيد اعادة سرد المقطع في كامله الذي يفاجئنا في اواخر السيرة، وهو ما يعبر فيه الكاتب عن ظل اسدل على اهل التغيير والخير في بلادنا، وظله لم ينقشع بعد بالتمام:

«المخابرات هي همي، هي مرضي الذي ضربني، وما زال يضربني بين حين وحين. كنت شاباً عند مستديرة العقد الثاني من عمري، وكنت طالباً في جامعة القاهرة عندما اصطدمت وزملائي في حركة القوميين العرب مع المخابرات، ورغم ان تلك المخابرات كانت تسمى عند البعض صديقة، وغير ذلك من النعوت غير الدقيقة اذ ليس هناك مخابرات صديقة. فالمخابرات تعمل من اجل نفسها، من اجل النظام الذي تقول انها تحميه...».

(*) محام وبروفسور في الحقوق.